﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٖ ٣١﴾

[الحج: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ مَثَلِ المُشْرِكِ بِـعَـدَ الأمْـرِ باجتنابِ الأوْثانِ

تتناسب هذه الآيةُ مع ما قبلها في أنَّهُ لمّا ذكرَ من أُمَّهاتِ الخبائثِ ما يستتبعُ سائرَها، وهو الشِّركُ وقولُ الزّورِ، وجعلَ التَّخلُّصَ إلى ذكرِهما ما كانوا يُعظِّمونَهُ من النَّسائكِ والقرابينِ تشبيهًا لها بالمعبودِ بالحقِّ، فقالَ: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 30]؛ مثَّلَ لعبادتِها تمثيلًا عجيبًا، وتصويرًا غريبًا، حيثُ قالَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُنَفَآءَ﴾: المعنى المحوريُّ للجذر (حنف) مَيْلُ الشَّيءِ[2] واعوجاجُهُ عن مُعتادِ الحالِ[3]، ومن ذلك: رجلٌ أحنَفُ، أيْ: مائلُ الرِّجْلَيْنِ، وذلكَ بأنْ يكونَ عندَهُ مَيْلٌ في صَدْرِ القَدَمِ[4]، والحَنَفُ: هو مَيْلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستقامةِ، والحَنيفُ: هو المائلُ إلى ذلكَ، قالَ تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النَّحل: 120]، وقالَ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج: 30 - 31]، ويُقالُ: تحنَّفَ فلانٌ، أيْ: تحرَّى طريقَ الاستقامةِ، وسمَّتِ العربُ كلَّ مَنْ حجَّ أو اختتنَ حنيفًا؛ تنبيهًا إلى أنَّهُ على دينِ إبراهيمَ عليه السلام[5].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 476.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حنف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنف).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح: (حنف).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (حنف).

2) ﴿خَرَّ﴾: (خرّ) أصلٌ واحدٌ، وهو اضطرابُ الشَّيءِ، وسقوطُهُ بقوَّةٍ مع صوتٍ غالبًا[1]، قالَ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل: 26]، وقالَ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فمعنى ﴿خَرَّ﴾: سقطَ سُقوطًا يُسمَعُ منهُ خَريرٌ[2]، والخَريرُ يُقالُ لصوتِ الماءِ والرّيحِ ونحوِ ذلكَ ممّا يَسْقُطُ من عُلْوٍ[3]، والخَرْخَرَةُ: صوتُ النَّمِرِ في نومِهِ[4].

3) ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾: المعنى المحوريُّ للجذر (خطف) استلابُ الشَّيءِ في خِفَّةٍ وسرعةٍ[5]، ومن ذلكَ يُقالُ: بَرْقٌ خاطفٌ لنورِ الأبصارِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20]، والشَّيطانُ يَخْطِفُ السَّمْعَ؛ إذا استرقَهُ، قالَ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصّافات: 10][6]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 67]، معناهُ: يُقتَلونَ، ويُسلَبونَ[7]، والخُطّافُ: الطّائرُ، تُصورَ أنَّهُ يَخْطَفُ شيئًا في طَيَرانِهِ، والخُطّافُ أيضًا: الحديدةُ الَّتي تدورُ عليها البَكَرةُ[8]، والخاطفُ: الذِّئْبُ؛ لاستلابِهِ الفريسةَ، والخَطَفى: السُّرعةُ في المَشْيِ، كأنَّهُ يختطفُ في مِشْيتِهِ عُنُقَهُ، أيْ: يجتذبُهُ[9]، ويُقالُ: بازٌ مُخطِفٌ: يختطفُ ما يصيدُهُ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾[10].

4) ﴿تَهْوِى﴾: الأصل (هوي) يدلُّ على خُلو وسُقوطٍ[11]، ومِنْ ذلكَ يُقالُ: هَوَى يَهْوي؛ إذا سقطَ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[12]، وطاحَ في المَهْواةِ والهاويةِ، وهي ما بينَ الجَبَلَيْنِ[13]، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: 9]، قيلَ: هو مِثْلُ قولِهم: هَوَتْ أُمُّهُ، أيْ: ثَكِلَتْ، وقيلَ: معناهُ: مَقَرُّهُ النّارُ، والهاويةُ هي النّارُ، والهَوَى: مَيْلُ النَّفْسِ إلى الشَّهْوةِ، وقيلَ: سُمّي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خرر).
(2) الرّاغب، المُفردات: (خرر).
(3) الخليل، العين: (خرر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (خرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خطف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خطف).
(7) الرّاغب، المُفردات: (خطف).
(8) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خطف).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (خطف).
(10) الرّاغب، المُفردات: (خطف).
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هوي).
(12) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: 2/ 998.
(13) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (هوي).

بذلكَ؛ لأنَّهُ يَهْوي بصاحبِهِ في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ، والهَواءُ: ما بينَ الأرضِ والسَّماءِ، وقد حُمِلَ على ذلكَ قولُهُ جلَّ وتباركَ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: 43]؛ إذ هي بمنزلةِ الهواءِ في الخَلاءِ، وأهواهُ: رفعَهُ في الهواءِ، وأسقطَهُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النَّجم: 53][1]، وقولُه: ﴿تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، أيْ: تُسقِطه، وتَقذفُه[2].

5) ﴿سَحِيقٍ﴾: (سحق) أصلانِ أحدُهما: البُعْدُ، والآخرُ: إنهاكُ الشَّيءِ حتَّى يُبْلَغَ به إلى حالِ البِلى، فالأوَّلُ: السُّحْقُ، وهو البُعْدُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: 11][3]، وقالَ: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[4]، أيْ: بعيدٍ العُمْقِ، ويُقالُ: أسحقَهُ اللّهُ، أيْ: بعَّدَهُ من رحمتِه، ونخلةٌ سَحوقٌ، أيْ: طويلةٌ[5]، والأصلُ الثّاني: سَحَقْتُ الشَّيءَ أسْحَقُهُ سَحْقًا؛ إذا دَقَقْتَهُ وفَتَتُّهُ[6]، ويُستعمَلُ في الدَّواءِ؛ إذا فُتِّتَ، يُقالُ: سَحَقْتُهُ، فانسحقَ، وفي الثَّوبِ؛ إذا أخلقَ[7]، ويُقالُ: أسحقَ الضَّرْعُ: ذهبَ لَبَنُهُ؛ وذلكَ على التَّشبيهِ بالثَّوبِ البالي[8].

المَعْنى الإجماليُّ:

وجوبُ المحافظةِ على التَّوحيدِ

يأمرُ اللّهُ تعالى عِبادَهُ بتوحيدِهِ وإخلاصِ العِبادةِ لهُ، فيقولُ: اجتَنِبوا - أيُّها النّاسُ - عِبادةَ الأوثانِ وقولَ الزّورِ مُستقيمينَ للّهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ لهُ، وإفرادِ الطّاعةِ والعِبادةِ لهُ دونَ الأوثانِ والأصنامِ غيرَ مُشرِكينَ بهِ شيئًا من دونِهِ، فإنَّهُ مَنْ يُشرِكْ باللّهِ

(1) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (هوي).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 23.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحق).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (سحق).
(5) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سحق).
(6) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: 1/ 532.
(7) الرَّاغب، المُفردات: (سحق).
(8) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سحق).

شيئًا؛ فمَثَلُهُ في بُعدِهِ من الهُدى وإصابةِ الحقِّ مَثَلُ مَنْ سقطَ من السَّماءِ، فتَخْطَفُهُ الطَّيرُ، وتُقطِّعُهُ في الهواءِ، فيَهْلِكُ، أو تَرْمي بهِ الرّيحُ في مكانٍ بعيدٍ غايةَ البُعدِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

إعرابُ ﴿حُنَفَآءَ﴾ و﴿غَيْرَ﴾ وسرُّ ذِكْرِهما:

المقابلةُ بينَ الميْلِ عنِ الدَّليلِ ومعَ الدَّليلِ وتأكيدُ التحذيرِ من الشِّرك

﴿حُنَفَآءَ﴾ و﴿غَيْرَ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ حالانِ مِنْ فاعلِ ﴿وَٱجْتَنِبُواْ﴾ [الحج: 30][2]، والحالُ الثّانيةُ حالٌ مُؤكِّدةٌ؛ إذ يلزمُ مِنْ كونِهم حُنَفاءَ عدمُ الإشراكِ[3]، والمعنى: (مُسلِمينَ لا يميلونَ إلى دينٍ غيرِ الإسلامِ)[4]، أو المعنى: (مائلينَ عنِ الباطلِ إلى الدّينِ الحقِّ مُخلِصينَ عبادتَكم لوجهِ اللّهِ)[5].

والحالُ الأولى تتَّصلُ بالزّورِ مِن قبلها، فإنَّ الزّورَ هو الانحرافُ عن الدَّليل، كالشِّركِ المُؤدّي إلى إنكارِ براهينِ الألوهيَّة، وتحريمِ ما لم يُنزِّلِ اللّه به سلطانًا مِن السّائبة ونحوها، وتحليلِ الميتة ونحوِها ممّا قام الدَّليلُ السَّمعيُّ على تحريمه، وإنَّ الحَنَف هو الميلُ مع الدَّليل؛ ولذلك جيء بقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ من بعد قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 30]، والزّورُ تدور مادَّته على القوَّة والوعورة، والحَنَفُ تدور مادَّتُه على الرِّقة والسُّهولة؛ فكان ذو الزّور مُعرِضًا عن الدَّليل بما فيه من الكثافة، والحنيف مُقبلًا على الدَّليل بما له من اللَّطافة[6]، فكان في الثّاني نوعُ توكيدٍ للأوَّلِ؛ لما بينهما من التَّقابل والالتقاء مع ما في الثاني من تأسيس معنًى جديدٍ كما لا يخفى.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 620، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 420.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 270.

(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 270، وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ ﴿غَيْرَ﴾ صفةً لقولِهِ: ﴿حُنَفَآءَ﴾، يُنظر: البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 425.

(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 57.

(6) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 150.

وهذا التَّشديدُ في تقريرِ العملِ الصالحِ الَّذي هو اجتنابُ الرِّجْس من الأوثان، واجتنابُ قولِ الزّور - بمجيءِ قولِه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ ناظِرٌ إلى هولِ السّاعةِ وعظيمِ أمرِها في مطلعِ السّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحجّ: 1]، فإنَّ تلك الأهوالَ الفخمة العظيمة إنَّما تُصيبُ في الأصلِ مَن يَضْعُفُ في مِثْل هذه الأعمال، ويُقَصِّرُ فيها، إلّا مَن رحِم اللّهُ.

معنى اللّامِ الدّاخلةِ على لفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

الـلّامُ تـدُلُّ على إخلاصِ العبادة واختـصـاصِـهـا بالله

اللّامُ الدّاخلةُ على لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ للاختصاصِ، والمعنى: (مائلينَ عن الباطلِ إلى الدّينِ الحقِّ، مُخلِصينَ عبادتَكم لوجهِ اللّهِ)، أيْ: جاعلينَ عِبادتَكم أو مَيْلَكم ذلكَ خالصًا لوجهِ اللّهِ غيرَ مُرائينَ فيها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

مـنـاسـبـةُ لـفـظِ الجلالةِ لسياقِ التَّوحيدِ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِه من الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ السّياق للحديثِ عن التَّوحيدِ وعدمِ الشِّرْكِ، وذلكَ يناسبُهُ الإتيانُ بلفظِ الجلالةِ الدّالِّ على مَنْ لهُ الكمالُ كلُّهُ[2]، ومِنْ ذلكَ استحقاقُهُ العُبوديَّةَ دونَ غيرِه.

وفي التَّعبيرِ باسمِ الجلالة - المُسيطِرِ على الأسماءِ والصِّفاتِ كلِّها - تعليلٌ في المعنى لقولِه: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ لأنَّ تفصيلَ معنى اسمِ الجلالة هو ما يُقْبِلُ عليه الحنيفُ، وفي آثارِ أسمائه وصفاتِه سبحانه وتعالى تكمنُ الدَّلائلُ الَّتي يُقْبِلُ عليها الواحدُ مِن هؤلاءِ الحنفاء، فالميلُ إنَّما يتسبَّبُ عن الجمالِ أو الجلال، والتَّعبيرُ بالاسمِ الجامعِ لأوصافِ الجمالِ والجلالِ أفادَ أنَّهم مالوا إليه تسبُّبًا عنهما معًا.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 57.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿مُشْرِكِينَ﴾:

حذفُ المفعولِ يفيدُ العمومَ فيه ويصرفُ النَّظرَ عنه إلى الفاعلِ

حُذِفَ مفعولُ اسمِ الفاعلِ ﴿مُشْرِكِينَ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ للتوصُّلِ بالعُمومِ المُستفادِ مِنَ الحذفِ إلى المبالغةِ في إفادةِ التَّوحيدِ والإخلاصِ وعدمِ الإشراكِ، والمعنى: (غيرَ مُشركينَ بهِ شيئًا من الأشياءِ)، وهذه المبالغةُ لا تزيد شيئًا في المعنى، وإنَّما هي تصوِّر حقيقة المعنى.

ويجوز أن يكون غيابُ المفعولِ لإثبات معنى اسم الفاعل في نفسه، منفيًّا مِن غير نظرٍ إلى مفعول، أيْ: لا يكونُ منهم إشراكٌ به، وهذا أبلغُ في تقرير توحيدهم ومدحهم به.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الشِّرْكِ في قوله: ﴿مُشْرِكِينَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الشِّركِ لسياقِ الحثِّ على التَّوحيدِ

عُبِّرَ بلفظِ الشِّركِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (غيرَ كافرينَ بهِ)؛ لأنَّ السّياق لإيجابِ اجتنابِ الرِّجْسِ من الأوثانِ واجتنابِ قولِ الزّورِ، والأمرِ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطّاعةِ والعبادةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لقولِهِ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، فيكونُ نفيُ الشِّركِ أنسبَ بهذا السّياق؛ لِما بينَ الشِّركِ والتَّوحيدِ مِنَ التَّقابلِ.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ للمُصاحَبةِ والمَعيةِ

الباءُ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ للمُصاحَبةِ والمَعيةِ، أيْ: غيرَ مُشركينَ معَهُ غيرَهُ[1]، وفي التَّعبيرِ بهِ مناسبةٌ لسياقِ الحثِّ على التَّنزُّهِ والتَّبرُّؤِ عنِ الشِّركِ بكافَّةِ صورِهِ وأشكالِهِ.

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَمَن﴾:

الواوُ في قولِ اللهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها مبتدأةٌ مؤكِّدةٌ لِما قبلَها مِنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 254.

اجتنابِ الإشراكِ[1]؛ لأنَّ المقصودَ مِنْ ضَرْبِ هذا المَثَلِ تصويرُ كيفيَّةِ انحدارِ المُشرِكِ مِنْ سماءِ العقلِ والفكرِ إلى مَهاوي الضَّلالِ[2]، وهذه الجملة تفصيلٌ لحال المشرك وأثرِ الشِّرك فيه، ممّا يُقرِّرُ معنى الأمر: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: 30]، فكان الظّاهر غيابَ الواو، بأنْ يُقال: (مَنْ يُشْرِكْ باللهِ؛ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ)، فمجيءُ الواو على خلافِ الأصلِ والظّاهر؛ للإشعارِ باستقلالِ مضمون التَّشبيه، تشديدًا في بيان حال الشِّرك والمُشرِك؛ حتى يرتدعَ وينزجرَ، فإنَّ زلزلة الساعة شيءٌ عظيمٌ.

استئنافُ التَّمثيلِ بالواوِ للمبالغة في التَّحذيرِ من الشِّرك

معنى (مَنْ) في قولِهِ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾:

﴿وَمَن﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شرطيَّةٌ، وهي تُفيدُ عُمومَ المَثَلِ المضروبِ لكلِّ مَنْ أشركَ باللهِ جلَّ وتباركَ، وهذا يناسب عمومَ المخاطَب بالحديث عن السّاعة في مطلع السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحج: 1].

(مَنْ) شرطيَّةٌ لعمومِ المخاطَبين

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُشْرِكْ﴾:

تدلُّ صيغةُ المضارعِ في قولِ اللهِ عزَّ وتباركَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على تجدُّدِ الشِّركِ واستمرارِهِ ممَّنْ ضربَ اللهُ ﷻ لهُ هذا المَثَلَ؛ إذ المُستحقُّ لهذا المصيرِ البائسِ هو مَنِ استمرأ الشِّركَ، واستمرَّ عليهِ، ولم يَرْجِعْ عنهُ بالإيمانِ والتَّوحيدِ.

الدَّلالةُ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للمُصاحَبةِ والمَعيةِ، والمعنى: (ومَنْ يُشرِكْ معَ اللهِ غيرَهُ؛ فكأنَّما سقطَ مِنَ السَّماءِ)، والأصل أنَّ فعلَ الإشراكِ يتعدّى بنفسهِ، وإن كان قد تعدّى بالباء كثيرًا في القرآن الحكيم، فيكون هذا من

سبحانَ اللهِ من زعمِ المُشركين باقترانِ المُصاحِبِ له!

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 105، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4980.

التَّضمين، ومعنى (أشرك بالله) على هذا: أشرَك اللّهَ في عبادتِه قارنًا به غيرَه[1].

ووراء تعدّيه بواسطتها الإشارةُ إلى أنَّ الأصلَ والحقَّ أن الشِّرك لا يَتسلَّط على الله سبحانه وتعالى، فمِثْلُه تعالى لا يُشرَك معَه غيرُه مِن المخلوقاتِ.

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

إعـظـامُ قُـبـحِ الـشِّـرك واسـتـحـقـاقُ صـاحـبـه أشـدَّ الوعيد

في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إذ الظّاهر أنْ يُقالَ: (ومَنْ يُشْرِكْ به)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى إظهارِ الاسمِ الجليلِ؛ لإظهارِ حالِ قُبْحِ الإشراكِ[2]، أيْ: ومَنْ يُشْرِكْ باللّهِ الَّذي لهُ العظَمةُ كلُّها والكِبْرياءُ كلُّهُ؛ فكأنَّما خرَّ مِنَ السَّماءِ ...[3]؛ وليكون تمهيدًا لذِكْرِ جوابِ الشَّرطِ المُشتمِلِ على المُسبَّبِ الفظيعِ في بابه؛ لأنَّ نفْسَ المُشركِ قد خَلتْ من جلالِ اللّه وجماله، فكانت مُتفرِّقةً مُتقطِّعةً مُتَشرْذِمةً، وجوابُ الشَّرطِ يُصوِّر ذلك الحالَ الغريبَ العجيب.

سرُّ تكرارِ اسمِ الجلالة:

إعـادةُ ذِكْـرِ الاسـمِ الظّاهرِ لِتستقلَّ جملةُ التَّشبيه

أُعيدَ ذِكْرُ اسمِ الجلالةِ بلفظِه دون ضميرٍ؛ ليجريَ على نسَقِ ذِكْرِ الواوِ في صدرِ بيانِ التَّشبيه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فداعي الواوِ هو داعي الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ من الإشعارِ باستقلالِ مضمونِ التَّشبيه، ليكونَ أشدَّ في الوعيدِ وأبلغَ في التَّحذيرِ.

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَكَأَنَّمَا﴾:

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: 15/ 442.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 105، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، وهو قولُهُ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾، وقد أفادت الترتيب والتعقيب.

بلاغةُ استعمالِ (كَأنّ) في قولِهِ: ﴿فَكَأَنَّمَا﴾:

التَّوكيدُ وإفادةُ التَّشبيهِ المناسبان لمقامِ ضربِ المَثَلِ

يدلُّ استعمالُ: (كَأنَّ) في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على توكيدِ مضمونِ الكلامِ الَّذي دخلَتْ عليهِ، وعلى إفادةِ التَّشبيهِ المناسبِ لمقامِ ضربِ المَثَلِ لمَنْ أشركَ باللهِ ﷻ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿خَرَّ﴾:

تقبيحُ التَّحوُّلِ من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ

في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿خَرَّ﴾ – في قولِ اللهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ – تنبيهٌ على قُبْحِ شأنِ التَّحوُّلِ من التَّوحيدِ إلى الشِّرْكِ؛ إذ فيهِ إيماءٌ إلى عُلوِ ما كانَ فيهِ هذا المُشركُ من أوْجِ التَّوحيدِ الَّذي فُطِر عليه، وسُفولِ ما انحطَّ إليهِ من حَضيضِ الإشراكِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿خَرَّ﴾:

تَوْكيدُ التَّشبيهِ بتَحَقُّقِ الخُرورِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ؛ إذ كانت تقتضي مضارعةُ الشَّرطِ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ مجيءَ الجوابِ مُضارِعًا: (فكأنَّما يخِرُّ من السَّماءِ)، وفي هذا العدولِ إشارةٌ إلى تحقُّقِ سُقوطِ هذا المُشركِ من السَّماءِ ووقوعِهِ، وملاءمةٌ لسياقِ بيانِ عظيمِ الخُسْرانِ، حيثُ يدلُّ الكلامُ على أنَّه مَنْ يُشركْ باللهِ؛ فقد تُيُقِّنَ وثبتَ سُقوطُهُ من مَعالي التَّوحيدِ إلى مَهاوي الشِّركِ.

فظاعةُ المَشهَدِ بسُرعَةِ السُّقوطِ

صيغةُ الماضي: ﴿خَرَّ﴾ تُشير كذلك إلى غايةِ سرعةِ سقوطِ المُشركِ من السَّماءِ، وأنَّ الحركةَ غيرُ ممتدَّةٍ بين مُنطَلَقِ الهويّ وبين مُنتهاه، من خَطْفِ الطَّيْرِ له بالمخلابِ، أو سقوطه في أبعَدِ مكانٍ، فكأنَّه حصَلَ الخَرُّ دفعةً واحدةً، ثُمَّ جاء الخطابُ ليصِفَ الحدَثَ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 534.

بعد مُضيه وانتهائه، وهذه مبالغةٌ ظاهرةٌ في بيان تلك السُّرعة، وتهويلٌ شديدٌ لأمرِ هذا الخُرورِ.

معنى حرفِ الجرِّ في: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداءِ الغايةِ، فهو يُفيدُ أنَّ ابتداءَ سُقوطِ هذا المُشركِ من السَّماءِ، وفيهِ إشارةٌ إلى بُعْدِ مسافةِ السُّقوطِ حيثُ كانَتِ البدايةُ من السَّماءِ الَّتي هي غايةٌ في البُعدِ في تصوُّرِ المخلوقينَ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في تقبيحِ شأنِ هذا المُشركِ التّاركِ للإيمانِ والتَّوحيدِ.

تصويرُ بُعدِ مسافة السُّقوطِ مبالغةٌ في تقبيحِ الشِّرك

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وسرُّ إفرادِ السَّماء:

الظّاهر أنَّ (أل) في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهدِ، والمُرادُ بها السَّماءُ الدُّنيا؛ إذ هي الَّتي تنصرفُ إليها الأذهانُ، وهي الَّتي جرَتْ عادةُ النّاسِ على التَّمثيلِ بها لبُعدِ الشَّيءِ، ويحتملُ أنْ يُرادَ بها جنسُ السَّماءِ، فيكونُ في الكلامِ زيادةُ مبالغةٍ بأنْ يكونَ ابتداءُ السُّقوطِ من السَّماءِ السّابعةِ، والأوَّلُ هو الأوْلَى؛ لكونه ألصقَ بطبيعةِ التَّشبيه من البيانِ والتَّوضيح، وإفرادُ السَّماءِ ناظرٌ إلى التَّوحيدِ الَّذي عدَل عنه هذا المُشركُ إلى الشِّركِ باللّهِ ﷻ.

تصويرُ عُلوِّ التَّوحيدِ في سقوطِ المُشركِ مِنه بالسَّماء المعهودة

معنى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾:

الفاءُ في قولِهِ عزَّ من قائلٍ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ عاطفةٌ لخَطْفِ الطَّيرِ للمُشركِ على سُقوطِهِ من السَّماءِ[1]، فكلٌّ منهما داخلٌ في حيِّزِ التَّمثيلِ المذكورِ.

دلالةُ استعمالِ الخَطْفِ في قولِهِ: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾:

في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ تهويلٌ لمصيرِ السّاقطِ من السَّماءِ؛ لأنَّ معنى ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾: فتسلُبُهُ بسرعةٍ، وتَخْطَفُ

تصويرُ أثرِ الشِّرك في نفسِ المُشرك مع فظاعةِ مَصيرِه

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 271.

لَحْمَهُ، وتُقطِّعُهُ بمَخالبِها، وهو نازلٌ في الهواءِ قبلَ أنْ يَصِلَ إلى الأرضِ[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ مَنْ تركَ التَّوحيدَ، ورضيَ بالشِّركِ؛ فقد أضاعَ نفسَهُ، وعرَّضَها للهلاكِ والبَوارِ؛ فهو يُصوِّر حقيقةَ أثرِ الشِّرك في النَّفس بِأنْ يُشتِّتَ فِكْرَهُ، ويُقَلْقِلَ نفسَه، فيَجعلَها مُضطربةً مُتزعزعةً.

نكتةُ عطفِ المضارعِ ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ على الماضي ﴿خَرَّ﴾:

تعجيبُ السّامع بِحال مَنْ تخطفُهُ الطَّير في جوِّ السَّماء

قولُهُ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، والظّاهر أنْ يُقالَ: (فخَطِفَتْهُ الطَّيرُ) بصيغةِ الماضي؛ ليتوافقَ زمنُ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، لكنْ عُبِّرَ بالمضارعِ هنا في قولِهِ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾؛ إشعارًا باستحضارِ تلكَ الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ، ويُسمّي النُّحاةُ هذا الأسلوبَ حكايةَ الحالِ الماضيةِ، وهذا إنَّما يُصارُ إليهِ في الأمورِ الَّتي لها شأنٌ، ويكونُ القصدُ تعجيبَ السّامعِ[2]؛ ولأنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يُفيدُ أنَّ خَطْفَ الطَّيرِ لهُ بمنزلةِ الصِّفةِ لهُ، والمعنى أنَّ مَنْ سقطَ من السَّماءِ، من صفتِهِ خَطْفُ الطَّيرِ لهُ وتمزيقُها لهُ[3]، هذا باعتبارِ عطفِ الجملة على جواب الشَّرط: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أمّا بالنَّظر إلى فعل الشَّرط في أوَّلِ الجملة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ فقد وافقته في صيغة المضارع، وإنَّما الخَرُّ جاء على خلاف الظّاهر بصيغة الماضي بين فِعلَيْن مُضارعَيْن: ﴿يُشْرِكْ﴾، ﴿خَرَّ﴾، ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾؛ إشارةً إلى سرعةِ السُّقوط وتحقُّقه.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿خَرَّ﴾ في معنى: يَخِرُّ، ولذلكَ عُطِفَ عليهِ المستقبلُ،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 55، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 439، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 481، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 58.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 597، 18/ 621.

وهو ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾[1]، وقيلَ: ﴿خَرَّ﴾ على بابِه، و﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، أيْ: فهو تَخْطَفُهُ[2]، والعطفُ من عطفِ الجملةِ على الجملةِ[3].

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾:

قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿فَتَخَطَّفُهُ﴾ بفتحِ الخاءِ وتشديدِ الطّاءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ بإسكانِ الخاءِ وتخفيفِ الطّاءِ[4]، فقراءةُ التَّخفيفِ من: (خَطِفَ يَخْطَفُ)، والخَطْفُ: الأخذُ[5]، وقراءةُ فتحِ الخاءِ وتشديدِ الطّاءِ على حذفِ تاءِ التَّفعُّلِ، والأصل: (فتَتَخَطَّفُهُ)[6]، والتَّشديدُ للمبالغةِ، وتُشيرُ قراءةُ التَّخفيفِ إلى أصلِ أثرِ الشِّركِ في النَّفسِ، وقراءةُ التَّشديدِ تشير إلى تمكُّنه وعظيمِ أثرِه فيها.

الخَطْفُ لأصل أثر الشِّرك في النَّفس والتَّخطُّف للمبالغة في التَّأثير

وحذفُ التّاءِ في قراءةِ التَّشديد (فتخَطَّفه) يُشير إلى سرعة الخطف، كما تُشير إليه الدَّلالة الصَّوتيَّة على قراءة التَّخفيف ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ في كَوْنِ الصّيغةِ المُجرَّدة أقلَّ حروفًا من المضعَّفة، فعلى القراءتَيْن تسويغٌ للجمع بين دلالة الماضي على السُّرعة في قوله: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وبين صيغة المُضارع في المعطوفِ عليه ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

سرعةُ الخَطْفِ والتَّخطُّفِ تُلائِمُ اقترانَهما بالسُّقوط

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلطَّيْرُ﴾:

اللّامُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ للجنسِ، أيْ: فيَخْطَفُهُ هذا الجنسُ المُسمَّى بالطَّيرِ؛ إذ ليسَ هناكَ معهودٌ ذِكْريٌّ؛ ليُقالَ: إنَّ اللّامَ عهديَّةٌ، والمقصودُ باستعمالِ (أل) الجنسيَّةِ هنا: الإشارةُ إلى حقيقةِ الطَّيرِ من خلالِ بعضِ أفرادِها، على سبيلِ الإبهامِ، فلامُ الجنسِ هنا للعهدِ الذِّهنيِّ.

التَّشبيهُ بأفرادٍ مُبهَمةٍ من جنسِ الطَّيرِ لا مخصوصةٍ بالعهد

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 271.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 120.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 143.
(4) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 326.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 425.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 120.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾:

مناسبةُ مقامِ بيانِ سوءِ المصيرِ

عُبِّرَ بمصدَرِ الطَّيرِ في قولِهِ جلَّ من قائلٍ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ الدّالِّ على الجمع، ولم يكن التَّعبيرُ بالجمع (الطُّيور) مثلًا موافقًا للاستعمال القرآنيِّ في غيرِه من المواضعِ الدّالَّةِ على الجَمْع: كقولِهِ تعالى: ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [البقرة: 260]، وقولِه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110]، وقولِه: ﴿فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ [يوسف: 41]، وقولِه: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النَّمل: 16]، ولفظ (الطير) يُفيد المَصدَريةَ والجمعَ معًا، والتَّعبيرُ به هُنا يحتمل الوجهَيْن، فباعتبار المعنى المَصدَري: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، أيْ: يَخْطَفُه جنسُ الطَّيْر، وباعتبارِ الدَّلالَةِ على الجمع: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، أيْ: يَخْطَفُهُ عددٌ كثيرٌ من الطَّيْر، وفيه بيانٌ لسوءِ مصيرِ هذا السّاقطِ من السَّماء، حيثُ يغدو نُهْبةً للطُّيورِ الكثيرةِ الَّتي تسلُبُ في سُرعةٍ وخِفَّةٍ لَحْمَهُ، وتُمزِّقُهُ كلَّ مُمزَّقٍ.

دلالة ﴿أَوۡ﴾ وأثرُها في المعنى:

مجيءُ (أو) لتقوية التَّصْوير ومُطابقةِ التَّشبيهِ للمُشَبَّهِ

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ للتَّخيير، أيْ: أنتَ مُخيَّرٌ في التَّشبيهِ بحالِ مَنْ خَرَّ من السَّماءِ فتَخْطَفُهُ الطَّيرُ، أو بحالِ مَنْ خَرَّ منها، فتَهْوي بهِ الرّيحُ في مكانٍ سحيقٍ، ويجوز أن تكون ﴿أَوۡ﴾ للتَّقسيم على معنى أنَّ مَهلِكَهُ إمّا هوًى يتفرَّق به في شِعْب الخَسار، أو شيطانٌ يُطوِّح به في مَهْمَهِ البَوار، وعلى هذَيْن التَّوجيهَيْن يكونُ المُشبَّهُ واحدًا.

ويجوزُ كذلك أنْ تكونَ ﴿أَوۡ﴾ للتَّنويع، فإنَّ الكافرينَ على نوعَيْن: الأوَّلِ مَنْ لا خلاصَ لهُ عن الكفرِ لتعلُّقِ العِلْمِ بموتِهم على الكفرِ، فذلك مُشَبَّهٌ بالنَّوعِ الأوَّلِ الَّذي تَوزَّع لحمُه في بطونِ جوارحِ الطَّير، والآخر مَنْ يُمكِنُ خَلاصُهُ على بُعدٍ بأن يُهدَى للإيمان والتَّوبة، فذلك مُشَبَّهٌ بالنَّوعِ الثّاني الَّذي رمَتْه الرّيح في المَهاوي، وعلى هذا التَّوجيهِ يكونُ المُشبَّهُ اثنيْنِ[1].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 58، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 143.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَهْوِى﴾:

مناسبةُ اللَّفظِ لمقامِ سوءِ المُنْقَلَبِ

في التَّعبير بلفظِ ﴿تَهْوِى﴾ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ مناسبةٌ لطيفةٌ لمقامِ بيانِ سوءِ مُنقلَبِ مَنْ أشركَ باللهِ سبحانَهُ وتعالى، لِما فيهِ من الإشعارِ بأنَّ الرّيحَ تُطوِّحُهُ، وتقذفُهُ، وترمي بهِ في مكانٍ بعيدٍ غايةَ البُعدِ ليسَ فيهِ إلّا الهلاكُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَهْوِى﴾:

تصويرُ الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ

عُبِّرَ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾؛ استحضارًا لتلكَ الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ لتعجيبِ السّامعِ منها، حيثُ يرى صورةَ هذا السّاقطِ من السَّماءِ، وقد اكتنفَتْ بهِ الرّيحُ، وعصفَتْ بهِ، وألقَتْهُ في مَهاوي الرَّدى، حيثُ ينتظرُهُ الموتُ المُحتَّمُ.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِ﴾:

الباءُ للتَّعديةِ وفيها تهويلٌ بشدَّةِ المَنْظَرِ

الباءُ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ للتَّعديةِ، أيْ: تُهْوِيهِ الرّيحُ[2]، وفي التَّعبيرِ بها بيانُ شدَّةِ عَصْفِ الرّيحِ بالسّاقطِ من السَّماءِ؛ حيثُ يصيرُ في وسَطِها، وهي تُطوِّحُهُ إلى أنْ ترميَ بهِ في مكانٍ سحيقٍ.

نكتةُ تقديمِ ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلرِّيحُ﴾:

تعجيلُ المَساءةِ لمزيدِ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُ ولأمثالِهِ من الكافرينَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِ﴾ على المُسنَدِ إليهِ ﴿ٱلرِّيحُ﴾ في قولِهِ عزَّ من قائلٍ: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ لتعجيلِ المَساءةِ، بتقديمِ ذِكْرِ تعلُّقِ إهواءِ الرّيحِ بالسّاقطِ من السَّماءِ، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهذا الكافرِ ولأمثالِهِ من الكافرينَ؛ لأنَّه العنصرُ المُحدَّثُ عنه المَعنيُّ بالتَّشبيهِ المُقابلِ للحنفاءِ للّه.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 439، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 534.
(2) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 312.

بلاغةُ قراءتَي الإفراد والجمع:

الـرّيـح والـرّيـاح يـرِدان في الخير والشَّرِّ جميعًا

قرأ الجمهورُ: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ بإفراد ﴿ٱلرِّيحُ﴾، وقرأه أبو جعفر بخُلْفٍ عنه بالجمع: ﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾، وقراءةُ الجمع ألصقُ بقوله: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، حيث التَّعبيرُ بالجمع ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾، وقراءةُ الإفراد ألصقُ بقوله: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حيث إفرادُ السَّماء، وهذا وجهٌ بليغٌ من وجوه تماسُكِ عناصر التَّشبيهِ وترابُطِها تُحقِّقُه القراءتانِ.

والريحُ المُفردُ هنا ينظرُ إلى الشِّرك، والجمعُ ينظرُ إلى أثر الشِّرك فيه المؤسَّسِ على تلاعُبِ الأهواء به، وتحكُّمها فيه من التَّشتُّت والتَّمزُّق والتَّقطُّع، والمُفردُ ينظر إلى قوَّة الشِّرك في إهلاكه وقوَّة سقوطه بالرّيح، كأنَّه دُفِع به مرَّةً واحدةً، والجمعُ يُنظر إلى إحاطةِ أهواء الشَّكِّ به وتمكّنِها منه، واستغراقه فيها، وكلَّما أُمعِن النَّظرُ في سياق الشِّرك والمشركين وأحوالهما؛ استُخرِج مِنَ القراءتَيْن ما هو أجودُ وأفخم.

وملمح بلاغي آخر في توجيه قراءة الجمع والإفراد هو اختلاف الجهة، فوجه القراءة بالجمع هو إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدل على اختلاف هبوبها، فهي رياح لا ريح؛ لأن الريح الواحدة إنما تأتي من جانب واحد، فكان لفظ الجمع فيها أولى، لتصرّفها من جهات فيكون لفظها مطابقا لمعناها في الجمع، ووجه القراءة بالتوحيد أن الواحد يدلّ على الجمع؛ لأنه اسم للجنس، فهو أخفّ في الاستعمال، مع ثبات معنى الجمع فيه[1].

سرُّ اختيارِ لفظَي ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ و﴿ٱلرِّيحُ﴾:

مناسبةُ التَّشبيهِ حالَ المشرك في الـخِـفَّـة وعـدم الاستقرار

واختيارُ الطَّيرِ والرّيح في التَّمثيل للمُشرك: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ لمناسبة القصدِ إلى تصوير حَيْرتِهِ وتشتُّته وتوزُّع أفكارِه، وما جرى في هذا الطَّريق من المعنى، فإنَّ الطَّير والرّيح

(1) مكّي، الكشف: 1/ 271.

تكون بين السَّماءِ والأرض، وكلٌّ من الطَّير والرّيح مُتحرِّكٌ غير مُستقرٍّ ولا ثابتٍ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾:

في الظَّرفيَّة المكانيَّةِ بيانٌ لدخول الكافر واحتوائه له

يدلُّ حَرْفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فيكون المكانُ السَّحيقُ ظرفًا لهلاكِ السّاقطِ من السَّماءِ الَّذي ألقَتْ بِهِ الرّيحُ في ذلك المكانِ، وفي ذلك بيانٌ لدخول الكافرِ واحتوائه له.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَكَانٍ﴾:

في التَّنكير زيادةٌ في التَّشنيعِ أو التَّحقيرِ

تنكيرُ ﴿مَكَانٍ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ للإفرادِ، والقصدُ إلى فردٍ من أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالمكانِ، والمعنى: (أو تَهْوي بِهِ الرّيحُ في مكانٍ من أمكنةِ الأرضِ سحيقٍ)[1]؛ زيادةً في التَّشنيعِ بمصيرِ المُشبَّه به، ويمكن أن يكون التَّنكيرُ هنا للتَّحقيرِ.

نكتةُ اختيارِ وصفِ ﴿سَحِيقٍ﴾:

المبالغةُ في بيانِ سوءِ حالِ السّاقطِ من السَّماءِ

اختيرَ وصفُ ﴿سَحِيقٍ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ دونَ غيرِهِ، فلم يَقُلْ مثلًا: (في مكانٍ بعيدٍ)؛ لِما يُفيدُهُ لفظُ ﴿سَحِيقٍ﴾ من غايةِ البُعدِ في السُّفولِ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ سوءِ حالِ السّاقطِ من السَّماءِ؛ إذ تُلقيهِ الرّيحُ، وتَرْميهِ في مكانٍ شديدِ البُعدِ محفوفٍ بالعَطَبِ والهلاكِ، فيتقطَّعُ عند وصولِهِ إلى الأرضِ بقوَّةِ السَّقْطةِ وشدَّةِ الضَّغْطةِ؛ لبُعدِ المَحَلِّ الَّذي سقطَ منهُ[2]، فلا تُرجى لهُ نَجاةٌ ولا خَلاصٌ، ولا يوجَدُ أحدٌ يُنقِذُهُ ممّا هو فيهِ، تُضافُ إلى ذلكَ ملاحظةُ ما في مادَّةِ السَّحْقِ من التَّعبيرِ عن إنهاكِ الشَّيءِ وتفتيتِهِ، فذلكَ يناسبُ غايةَ المناسبةِ سياقَ بيانِ عقوبةِ المُشركِ باللهِ[3].

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.
(3) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 288.

بلاغةُ التَّشبيهِ في الآيةِ:

خـيرُ التَّشبيهِ المُركَّب ما تقابلت أجـــــزاؤهُ أو بعضها

يُحملُ التَّشبيهُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ على كونِه من التَّشبيهِ المُركَّبِ والمُفرَّقِ.

فكَوْنُه من المُركَّب بأنْ يُقال: مَنْ أشركَ باللّهِ؛ فقد أهلكَ نفسَهُ إهلاكًا، ليسَ بعدَهُ نهايةٌ بأنْ صورَ حالُهُ بصورةِ حالِ مَنْ سقطَ من السَّماءِ، فاختطفَتْهُ الطَّيرُ، فتفرَّقَ قِطَعًا في حواصلِها، أو عصفَتْ بهِ الرّيحُ حتَّى هوَتْ بهِ في بعضِ الأماكنِ البعيدةِ، والتَّشبيه المركَّب هنا مُتعدِّد، سواء جعلنا ﴿أَوْ﴾ للتَّخيير، أم جعلناه للتَّنويع، فعلى الأوَّل: المُشبَّه به مُتعدِّدٌ، والمُشبَّه واحدٌ، وعلى الثّاني: المُشبَّه مُتعدِّدٌ، والمُشبَّه به مثله.

ومن التَّشبيه المُركَّب ما يمكنُ جعْلُ بعض أجزائه تشبيهاتٍ مُستقلَّةً، وهذا نتاج سخاء عناصر إبانة التَّشبيه في سياقه، ويُقال في بيان أجزاء التَّشبيهِ بأنَّ الإيمانَ شُبِّهَ في عُلوهِ بالسَّماءِ، وشُبِّهَ الَّذي تركَ الإيمانَ، وأشركَ باللّهِ بالسّاقطِ من السَّماءِ، وشُبِّهَتِ الأهواءُ الَّتي تتوزَّعُ أفكارَهُ بالطَّيرِ المُختطِفةِ، وشُبِّهَ الشَّيطانُ الَّذي يُطوِّحُ به في وادي الضَّلالةِ بالرّيحِ الَّتي تَهْوي بما عصفَتْ بهِ في بعضِ المَهاوي المُتلِفةِ[1]، فلا تعانُدَ بين التَّركيبِ والتَّفريق.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(السُّقوطُ) و(الخَرُّ):

السُّقوطُ: الوقوعُ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، أو طَرْحُ الشَّيءِ من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ مُنخفِضٍ، كسُقوطِ الإنسانِ من السَّطْحِ[2]، والخَرُّ: هو سُقوطٌ يُسمَعُ منهُ صوتٌ، والخريرُ يُقالُ لصوتِ الماءِ والرّيحِ وغيرِ ذلكَ ممّا يَسْقُطُ من عُلْوٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ

السُّـقـوطُ هو الوقوعُ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ والخَرُّ سُقـوطٌ يُسمَعُ منهُ صوتٌ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 155، والنّسفيّ، مدارك التنزيل: 2/ 440.
(2) الرَّاغب، المُفردات: (سقط)، وزيدان، الفروق اللّغويّة: 505 - 506.

رَبِّهِمْ﴾ [السّجدة: 15]، استُعمِلَ فيهِ الخَرُّ تنبيهًا على اجتماعِ أمرَيْنِ: السُّقوط، وحصول الصَّوتِ منهُم بالتَّسبيحِ[1].

(البُعْدُ) و(السَّحْقُ):

كـــلاهـــمـــا يُـستـعـمَـلُ في خلافِ القُرْبِ مع ملاحظةِ شدَّةٍ في السَّحْقِ

البُعْدُ: خلافُ القُرْبِ، ويأتي بمعنى الهلاكِ[2]، والسَّحْقُ يأتي بمعنى البُعْدِ، ويأتي بمعنى إنهاكِ الشَّيءِ حتَّى ينتهيَ إلى حالِ البِلَى[3]، فيشتركانِ في استعمالِهما في البُعْدِ مع ملاحظةِ أنَّ في السَّحْقِ شدَّةً في البُعْدِ[4].

(1) الرَّاغب، المُفردات: (خرر)، وزيدان، الفروق اللّغويّة: 505 - 506.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحق).
(4) زيدان، الفروق اللّغويّة: 288 - 292.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»